فلسفة الأشكال الرمزية

• عبد القادر فهيم شيباني

1- حدود السيميائيات العامة

تعد السيميائيات العامة، فضاء نظريا لمساءلة قوانين المعرفة السيميائية وحدودها، إذ تستطيع هذه المساءلة أن تدعم مادتها العلمية، فتحدد موضوعها وتجانس منهجها، عبر بسط المقومات النظرية للعموم التي ظلت غائبة، كونها أضحت اليوم حقلا للأبحاث وفهرسا مفتوحا للاهتمامات. إن السيميائيات العامة هي فلسفة للمفاهيم تعف عن التحليلات الخاصة، وتسعى لطرح جملة من المقولات العامة، التي تشرف على احتواء مختلف الوقائع السيميائية؛ فلسفة تتحاشى لحظة الاكتمال المسبق، وتنزع بخطابها نحو النسبية من دون هيمنة إيديولوجية على الخطابات.

يرتبط تحديد الحيز المعرفي للسيميائيات العامة، داخل الاقتصاد العام للمعرفة السيميائية، بإيجاد منظور نظري موحد تنصهر في بوتقته جل التباينات الشكلية لتمثلية العلامات ودلالاتها، حيث تحظى كل علامة على اختلاف حقل الممارسة المرتبط بها بالوضع النظري نفسه. ورهان السيميائيات العامة على المظهر الموضوعي في الأنساق الدالة، لا يعني أنها تؤلف مركز اهتماماتها؛ فالسيميائيات العامة ليست بالوصفية ولا هي بالتطبيقية، ولكنها تروم بناء أنموذج نظري خالص، تستطيع من خلاله الحديث عن موضوع العلامة. والواقع أن أكثر المفاهيم تجريدا هي أكثرها تطبيقا، لأن استهداف بناء أي نظرية قابلة للتطبيق متوقف على تطويرها باستقلالية عن تطبيقاتها. بيد أننا لا يمكن أن نتصور وجود سيميائيات عامة إلا بوجود سيميائيات خاصة حقيقية؛ مهمتها إثراء الأولى بالمناهج الخاصة وتوسيع دائرة اهتماماتها، عبر إمدادها بديمومة الحياة العلمية، وإبراز بواطن الخصوصيات الإبستمولوجية؛ التي تتقاطع في سبيل إعادة بناء أو توسيع أو تصحيح الأنموذج المعلن سلفا. فيبدو بذلك نشاط السيميائيات العامة، قائما في جوهره على مبادئ التحليل المقارن لتباينات النتائج بين مختلف فروع السيميائيات الخاصة.

تنهض السيميائيات العامة، داخل إطار نظرية العلامة، على حقول نظرية قاعدية، كتلك التي ترتبط بأنموذجية العلامة اللسانية، أو بمتصورات الدلالات المفتوحة(السيميويس)، أو بالنظرية السردية للخطاب. وقد تكون اللسانيات كما يرى سوسير أنموذجا عاما للسيميائيات. ولكن بأي حق؟ أهي كذلك بنسقية اللسان؟ أم باعتباطية علاماته؟. أو لم يكن دوسوسير مشغولا باستدراج الرموز إلى حيز السيميائيات العامة؟ لقد رفع آرنست كاسيرر لواء فلسفة للأشكال الرمزية؛ تقوم على فحص مختلف العمليات الترميزية في اللغة، والدين، والفن والأسطورة، حيث تغدو الثقافة الذهنية، سلوكا رامزا تؤطره مجاهيل الإحالة السحيقة إلى الموروث الدلالي. ولكن هل يمكن لمتصورات فلسفة الأشكال الرمزية أن تزعزع أسس الهرم النظري التقليدي، في تصورنا للاشتغال السيميائي للعلامة؟

2- فكر العلامة وتنميطات التصور السيميائي

تسعى السيميائيات العامة، بالموازاة مع انشغالها بإيجاد تصور نظري شمولي لمختلف العلامات أو الأنساق لدالة، بإيجاد صنافة معيارية، أكثر طواعية عموما لاستيعاب الأنماط المختلفة للعلامات. وعلى هذا النحو، تبدو أكثر فروع المعرفة السيميائية

* معسكر – الجزائر

اهتماما بإحصاء التصورات المهتمة بتحديد مكونات العلامة، وشرح ماهيتها. لقد انشغل آمبرتو إيكو ابتداء من الفصل الثاني من كتابه «العلامة» ، بمناقشة مختلف هذه الصنافات وعرض خطاطاتها، بشكل قاده إلى بلورة تصور إنتاجي للعلامة، حيث يمكننا من خلاله، تجاوز الأبعاد المسطحة لإطار التلقي، التي تراهن على فعل التلقي نفسه، لإدراك ماهية العلامة واختلافاتها.

لقد حاول آمبرتو إيكو، التركيز على رؤيا إنتاج العلامة، في كتابه «إنتاج العلامات»[2] ، ومن ثم تقديم عرض وصفي لجدول الإنتاج، الذي تبلورت معالمه في الكتاب السابق ذكره. هذه الخطوة التي كانت تنحو نحو بناء تصور متعال لماهية العلامة، بدت غير مؤسسة على قاعدة تصورية متسقة، وعليه فقد وجدنا صاحب هذا التصور، يتحاشى مناقشة مفهوم الإنتاج نفسه، بما يفضي إلى فهم الآليات المتحكمة في اختلاف صور الإنتاج وأشكاله، على نحو بدا فيه منساقا نحو جرد أشكال الإنتاج العلاماتي.يسمح لنا حيز التعالي، بالفهم العميق لماهية العلامة، على نحو قد يمكننا من الترفع عن الانتباه إلى خواصها الشكلية، والتركيز على الماهية الجامعة في تشكيل مختلف أنواعها، وذلك ما تصبو إليه فلسفة الأشكال الرمزية عند آرنست كاسيرر من جهة، وتكريس جبر العلامات عند شارلز سندرس بورس، من جهة أخرى.

3- فلسفة الأشكال الرمزية: أصول المفهوم

سعى آرنست كاسيرر مع بداية القرن العشرين، إلى بناء تصور إبستمولوجي للعلوم الدقيقة وعلوم الطبيعة، هذا المشروع الذي بلوره مبدئيا في كتابه «الجوهر والوظيفة» [3] **(1910)**، وجد منطلقه القاعدي في أفكار كتاب «نقد العقل الخالص» لإمانويل كانط.

يعتقد آرنست كاسيرر، أن مجمل العلوم لا تحيد من حيث المبدأ، عن صورتين:

أ- الأنموذج الأرسطي: الذي يرى أن العلم هو ما يقوى على ابتداع مفاهيم شمولية، مستمدة من الطبيعة بمختلف أجناسها.

ب- الأنموذج الغاليلي: الذي يرى أن العلم هو إعادة بناء وظيفية للمفاهيم، حيث يأخذ هذا البناء نمطه البنوي وجوهره الرياضي، مظهرا توليديا بالأساس.

ينتصر آرنست كاسيرر للنمط الثاني، وعليه فإن العلم - في تصوره يقارب تصور لا يبنتز- لا ينتظم إلا بالترييض(**mathématisation**) المتصل، الذي يقوى على تعويض صورة انتظام الواقع. ومن ثم فهو يرى أن الأنموذج التعميمي الأرسطي في رؤيا العالم، يبدو دسما بالمعنى، على خلاف الأنموذج الرياضي الغاليلي، الذي يبدو أكثر تجريدا.

لقد كان لزاما على كاسيرر، أن يوجد مساحة لتجاوز منظور كل من كانط ولايبنتز، بعد كتابه الأول»الجوهر والوظيفة»، وذلك في سبيل بناء تصور يستهدف الإحاطة بالصورة الكلية للتجربة الإنسانية، يقول كاسيرر:« بدل الانخراط في البحث عن الشروط العامة التي تمكن الإنسان من الـتعرف على العالم، فإنه يبدو من الواجب حصر الأشكال الأساسية التي يـفهم من خلالها الإنسان هذا العالم...» [4] . إن العالم المدرك كما يعتقد كانط، خاضع لمنطق تباين «الأشكال»(مبدأ الاختلاف)، ولعل هذه الرؤية المتعالية، تخضع للتعميم في فلسفة الأشكال الرمزية، لتشمل كل صورة من صور فهم الإنسان للعالم.

4- هيمنة العقلاني وموضوعية اللاعقلاني

اقترنت الفلسفة وذلك بالنظر إلى طبيعتها والشروط التاريخية لنشأتها في تصور كاسيرر، بابتداع مسافة بينية، بينها وبين مختلف القوى الفكرية، على غرار تلك التي تنعكس في اللغة والأسطورة. وفي ضوء هذه الرؤية تبلور مفهوم الموضوع العقلاني، حيث بدا النزوع واضحا نحو التخلص الكلي، من كل ما تتيحه اللغة و الأسطورة والدين، ذلك أخذا بمنطق الأقوى عقلانية أو تعبيرا، أو الأكثر تعليلا. ومن ثم جاء إدراج موضوعي اللغة والأسطورة متأخرا، بعد إقصاء طويل. ولعل تجاوز هذا المأزق، لا يكمن البتة في تجاوز الموضوعات غير العقلانية، بل إنه من الواجب، كما يرى كاسيرر اعتبار استعمالاتها شرطا لإمكانية بلورة معرفة علمية عن الطبيعة نفسها.

إذا ما سلمنا بوجود الرابط العقلاني بين الفلسفة والعلم، فإنه من الواجب إعادة إدراج اللغة وكل ماهو أسطوري وديني ضمن مجال العقلانية، ومع أن ذلك قد يحصل بشيء من المخاطرة في القضاء على مفهوم السديم للموضوعية، بل وحتى فكرة التحري العقلاني، وذلك عبر توسيع حقول العلم التطبيقية بطبقات من المعنى.

لذلك، يصبح من الضروري، مجاوزة الثورة الكوبرنيكية، التي كانت معينا لـكانط: إن فلسفة الأشكال الرمزية تستهدف توسيع دائرة القاعدة المتعالية للمعرفة، من دون سفسطة، وذلك عبر إعادة إدراج داخل الكون العقلاني، للمعرفة غير الموضوعية، التي تخضع من حيث المبدأ لشروط كل ماهو عقلاني. وليس ذلك ممكنا، إلا بوجود أدوات ووسائل تمكننا من تحيين الجزئية

العقلانية داخل ما هو ذاتي، تحديدا ضمن اللغة والأسطورة والدين وحتى ضمن مجال المعرفة.
لكن كيف لنا، أن ندرك الموضوعات غير العقلانية عبر تبني رؤية عقلانية؟

5-العلامة والشكل الرمزي.

يقول كاسيرر: «نقصد بالشكل الرمزي، الطاقة الكونية للذهن، التي تسمح بالتأليف بين محتوى دلالي ذهني مع علامة محسوسة متحققة، حيث ينسجم جوانيا مع هذه العلامة. وبهذا المعنى، فإن اللغة والكون الأسطوري-الديني [5]، والفن تتمظهر كلها في أعيننا بوصفها أشكالا رمزية خاصة. إن الوعي لا يكتفي بتلقي الانطباعات الخارجية للظواهر فحسب ، ولكنه يعمد إلى وصل كل انطباع بنشاط حر للتعبير، ويخصبه. إن عالم العلامات والصور التي تتخلق بنفسها، تتجاوز ما نسميه الواقع الموضوعي للأشياء، وهي تثبت نفسها أمام الواقع الموضوعي للأشياء باستقلاليتها الكلية، وقوتها الأصلية» [6] . ثمة إذا، أشكال رمزية مختلفة، عمد كاسيرر إلى تعديدها كاللغة، والفن، والأسطورة، والدين، والمعرفة، يحكمها أصل جامع، يتمثل في أنها تخضع لطاقة كونية ذهنية.
على الرغم من غموض هذا التعريف، فإنه يمكننا أن نخلص إجمالا، إلى أن الشكل الرمزي يسمح بتجاوز هامش المنازعة بين المظهر المثالي الخالص للتصور والمادة التي توفر الدعامة لتعبير هذا التصور. هذه المنازعة، تأخذ في نظر كاسيرر شكل تناقض منطقي، يشدد على الاختلاف بين التصور والمادة، وبين الضرورة والتداعي. وإن الشكل الرمزي يتجاوز بالأساس هذا التناقض: فهو يتجاوز كل انطباع محسوس خارجي، وهو يتعلق بهذا الفعل بمثالية التصور، بيد أن وظيفته تكمن في الاشتغال بالمادة. بالنظر إلى تشكيلها كدعامة للعلامة. وعليه، فإنه يمكننا أن نقول: إن الشكل الرمزي هو كل ما من شأنه(يمكنه) تحويل المادة إلى دال.

6- مقومات الشكل الرمزي:

1.6 - قوة التشكيل: تتضمن الأشكال الرمزية، بوصفها طاقة كونية، كل فعل من شأنه، أن يحول الوقائع المحسوسة إلى أشياء قابلة للتأويل. فهي لا تمثل انعكاسا للوقائع المحسوسة؛ بوصفها مشكلة، وليست منتجة فحسب. يقول كاسيرر: «إن كل الوظائف الروحية الكبرى، تتقاسم مع المعرفة الخصوصية الأساسية، بكونها تتوطنها قوة مشكلة أصلية، ليست مجرد إعادة إنتاج فحسب. وعليه فإنه بعيدا عن الحضور الخالص للظواهر، ثمة وظيفة تتولى ضمان، عبر القوة المستقلة للطاقة الروحية، التي تتموجد فيها، بعض الجزئيات 'الدلالية'،[...] .وذلك ينطبق على الفن والمعرفة، والفكر الأسطوري وحتى الدين: إن عالم الصور بوصفه يخضع لكل وظيفة من الوظائف الروحية، ليس مجرد انعكاس بسيط لمعطى تجريبي؛ بل هو على العكس ناتج عن وظيفة موافقة له. وعليه، فإن كل وظائف الروح، تولد تصويرات رمزية خاصة بها، والتي على الرغم من تباينها الكلي عن الرموز العقلانية، فهي لا تمت له بصلة، وذلك بالنظر إلى أصلها الروحاني.
ينبغي إذاً، أن لا نراعي فيها، مختلف الطرق التي تعتمدها الوقائع في ذاتها، في الكشف عن الذهن، ولكن أن نراعي مختلف الطرق التي يتخذها الذهن بسيروراته في سبيل بناء بعدها الموضوعي»[7].
ثمة إذاً، إمكانية لوجود فلسفة عامة للعلوم الذهنية، تمكننا من دراسة اللغة والأسطورة والمعرفة والفن بصورة مباشرة.

3.6 - الأشكال الرمزية وتوليد القيم: تمثل الأشكال الرمزية في نظر جون لاسيغ، محطات ضرورية لا مناص منها، تقود إلى تثبيت القيم المرتبطة بالموضوعات المرشحة للاختراق [8] : وثمة أسلوب خاص تنتهجه الأشكال الرمزية لاستثمار قيمها الخاصة بغية تشكيل سماتها المختلفة على مجموع الدعامات المادية التي تنتقيها، ضمن كل المستويات، حيث يمكن أن يحصل الانزياح.

4.6 - من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل: إن السيرورة (**la sémiotisation**) التي تجعلها الأشكال الرمزية ممكنة، ليست في مجملها لسانية، حتى وإن كانت تصبو لأن تصير لسانية عبر سيرورة تجريدية: فهي تستند أولا، إلى ممارسة. لذلك ينبغي أن نتأمل الشكل الرمزي، ليس بوصفه ملكة للتمثل تعطى بصورة فطرية، ولكن بوصفه مجموعة من الموجهات[أو الجهاتيات] لإنتاج موضوعات التمثل نفسها. وعلى هذا النحو تكون الأشكال الرمزية منتجة للاستعارات المفهومية الكبرى [9] ، التي تقوى على تشكيل دعامات العلامات، وبث روح المعنى في موضوعات التمثل. إن تمثل الأعداد مثلا، ليس انعكاسا لواقع سابق في الوجود، بل هو نتاج للممارسة، التي تمكننا من إدراك الأعداد: وإذاً، فلا طائلة من تبرير فعل الشكل الرمزي، بالعودة إلى الوجود الأول للموضوع التجريبي، طالما أن هذا الموضوع نفسه لا معنى له إلا بوصفه ناتجا عن ممارسة.

5.6 - الثقافة ونحو الأشكال الرمزية: تؤلف الأشكال الرمزية، بوصفها ممارسات دالة، في مجملها، نسقا يسمى الثقافة. ولذلك ثمة حاجة ملحة لمناقشة مسألة العلاقات القائمة بين مختلف الأشكال الرمزية، داخل نسق الثقافة كما

يتصوره كاسيرر، ومن ثم داخل الحرم النسقي لنظرية الثقافة أو«منطق علوم الثقافة». تستمد فلسفة الأشكال الرمزية أصولها من مسألة تجاوز رؤيا العالم التي تنتجها اللغة والأسطورة والدين، ولكنها تشير في الوقت نفسه إلى طرق أخرى يمكنها إلى جانب اللغة والأسطورة والدين أن تؤلف أشكالا رمزية جديدة تتعلق بممارسات جديدة، ومجالات مغايرة.

ينبغي إذاً، تأمل العلاقة النسقية بين الأشكال الرمزية ضمن إطار «نحوي» وليس منطقي. ذلك لأنه بالعودة إلى تلك المتصورات الكلاسيكية للمنطق، التي تعمد إلى إقامة فصل جذري بين العالم الملموس والعالم المحسوس، ينتفي المجال غير المنطقي والدينامي الذي تعتاش فيه الأشكال الرمزية.

يقول كاسيرر: إذا ما استطعنا بلوغ رؤية نسقية لمختلف التوجهات لهذا النمط من التعبير، وتحديد خواصه النمطية والمشتركة، وتراتباته الخاصة وتباييناته الداخلية، فإننا سنكون على أعتاب صورة لـمجموع الإبداع الذهني المثالي بمنحاه الشمولي، يشبه إلى حد ما تصور لايبنتز للمعرفة. فنحن إذاً أمام نحو للوظيفة الرمزية، التي تشتمل وتحدد بصورة عامة، مجموع التعبيرات والتعابير الخاصة، التي نشهدها في اللغة والفن، في الأسطورة والدين.

لقد كان كاسيرر يميل إلى الأسلوب النسقي للنحو، لأنه أكثر طواعية، وأقل تجريدا من المنطق بمعناه الكلاسيكي. فالنحو ينسجم حتى مع الطبيعة الواقعية للغة، ويبدو قادرا وبسهولة على المزاوجة بين تطور اللغة المتواصل، بما يترك المجال مفتوحا، وبصورة قطعية، للسيرورة التأويلية للثقافة، بوصفها حقلا لظهور أشكال رمزية جديدة.

خـاتـمـــة

إن هذه المحطات الضرورية، التي تمثل الأشكال الرمزية، هي بمثابة التوقعات لكل تفاعل ممكن يتضمن الطريقة التي تنتج من خلالها التفاعلات البين– فردية: وهي تأخذ شكل معايير. وعليه فإن الأشكال الرمزية من شأنها توصيف مختلف التوجهات العامة للتفاعلات الإنسانية، وتحديد عدد كبير من النشاطات الثقافية.بل إن الأمر لا يمتد إلى اللغة والأسطورة والمعرفة فحسب، بل إنه من الممكن إلحاق، الجماليات(مدرسة، أسلوب، اتجاه)، والسياسة (قوانين القضاء، أشكال السلطة، مبادئ القران)، والاقتصاد(أنماط التبادل، أنماط العمل، أنماط الأموال والمدخرات)، أو الطقوس (الأديان، الاحتفاليات، التقنيات).

الـــهـــوامـــش

1 – Eco U., Le signe, histoire et analyse d'un concept, trad. J.–M. Klinkenberge, Bruxelles, Ed. Labov, 1988.

2 – Eco U. , La production des signes, Librairie Générale Française, 1992.

3 – لاينبغي تأمل تراتب الكتابات المتتالية لـ: كاسيرر حول فلسفة الأشكال الرمزية(الجزء الأول: اللغة–الجزء الثاني: الأسطورة– الجزء الثالث: المعرفة)، بوصفها ترسم مسارا لبلوغ المعرفة الموضوعية، لأن كاسيرر نفسه يرفض أن يرى في الموضوعية العلمية الغاية الوحيدة والسامية في الثقافة كلها.

4 – E. Cassirer, Philosophie des formes symboliques, le langage, Paris, éd. Minuit,p.7 .

5 – بين اللغة والأسطورة خيط جامع، يعزيه كاسيرر للاستعارة، فالاستعارة تقوم على إفراغ لمثير محرك، يستظهر الكيانات المعتمدة في اللغة بوصفها الكيانات الواقعية – لما هو أسطوي بالأساس –الوحيدة، لذلك فإن الاستعارة اللسانية والاستعارة الأسطورية، لا تتكشف، بمثل القوة الروحانية الجامعة بينهما، التي تتأبى بدورها عن الفهم، إلا بالعودة لهذا الأصل المشترك، فقط إذا ما تحرينا البحث عنها في ذلك التكثيف الخاص، في تراكمات الحدس المحسوس، الذي هو قوام كل تشكل، سواء أكان لسانيا أسطوريا أو دينيا.

6 – E. Cassirer, Trois essais sur le symbole, Paris, éd. Le Cerf, p.9

7 – E. Cassirer, Philosophie des formes symboliques, le langage, Paris, éd. Minuit,p.1819–.

8 – الأشكال الرمزية عابرة للمجالات، ولايمكن بأي حال من الأحول حصرها ضمن مجال معين من مجالات النشاط الإنساني. بمعنى آخر فإن القيم المرتبطة بنتائج التفاعلات الاجتماعية، غير محدودة ضمن مجال خاص، متعلق خصيصا بهذا التفاعل أو ذاك، فالشكل الجمالي، لا يبقى منحصرا ضمن نطاقه الجمالي الخاص، ولكنه يبرز في شكل توجهات جمالية في مجالات الموضة واللباس، والعمارة، والتكنولوجيا وغيرها.

9 – ثمة جدل واسع في تراثنا البلاغي، حول فعل التشكيل الذي تمارسه الاستعارات بين مقولتي الشاهد والغائب.